المنعرج الفينومينولوجي (ادموند هوسرل –هايدغر)

الظاهراتية هي المقابل العربي لمصطلح phénoménologie الأجنبي ،و هو واحد من مقابلات عدة مثل الظواهرية ، فلسفة الظواهر ، علم الظواهر . و قد ارتبط هذا المصطلح بالفيلسوف الألماني إدموند هوسرل Edmund Husserl (1859–1938) الذي تزعم مدرسة فلسفية في بداية القرن العشرين عنت بموضوع الفينومينولوجيا .لكن ما هي الفينومينولوجيا؟ يقول سعيد توفيق في كتابه " الخبرة الجمالية. دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية" :" ليست الفينومينولوجيا صياغة جاهزة و ل كنها منهج مفتوح و أداة قابلة للتطوير باستمرار و لذلك فإن الفلاسفة حاولوا الإجابة على هذا التساؤل– ما هي الفينومينولوجيا –كل بطريقته الخاصة" (1)و على العموم فهمّ الظاهراتية منذ نشأتها كان محاولة فهم الوجود بوصفه مجموعة من الظواهر التي تتجلى في الزمان و المكان ،إنها منهج فكري يقوم على " فكرة جوهرية مفادها أن الأشياء لا توجد كأشياء في ذاتها بكيفية خارجية و قبلية و في استقلالية مطلقة بالنسبة إلينا ، بل إنها تظهر دائما كأشياء يفترضها أو يقصدها الوعي" (2) و معنى هذا أن الظاهراتية هي دراسة الأشياء بعيدا عن الأحكام المسبقة التي من شأنها أن تحول دون المعرفة بحقيقة الأشياء ، إنها تدرس ما هو معروض على الوعي حيث تكون الذات على اتصال مباشر بالموضوع ، و فهم الظاهرة بالتالي يكون ضمن الخبرات الذاتية ،إنها " تبدأ مما يتركه العلم بلا توضيح أي مما ينظر إليه العلم على أنه وقائع جاهزة و بديهيات واضحة بذاتها تتأسس فوقها حقائق ومعارف ، إنها تريد أن تبدأ من الخبرة المباشرة بالعالم و الأشياء ،أي من معنى أو ماهية الأشياء كما تبدو في خبرتي ،و ليس باعتبارها وقائع مستقلة عني ، هذه المنطقة يتجاهلها العلم ، و بالتالي فإنه يتجاهل الإنسان و يفقده دلالته الإنسانية ، إن هذا هو ما يقصده هوسرل بأزمة العلوم الأوروبية التي هي في حقيقة الأمر أزمة الإنسان الأوروبي فقد أصبحت روحه مريضة حينما أصبح مستبعدا و منسيا " (3) لقد فصل العلم بين الذات و الموضوع بينما

تحاول الظاهراتية رد الاعتبار للذات بوصفها قادرة على فهم الوجود بتمثله في الوعي الإنساني. لقد أصبح المنظور الذاتي في هذه الفلسفة هو المنطلق في التحديد الموضوعي ، و لا يمكن تصور الأشياء بمعزل عن الذات المدركة لها.

مبادئ الظاهراتية عند هوسرل :

– التخلص من الفروض المسبقة و ترك الأحكام الجاهزة التي تُغيب عنا الظاهرة، و لعل هذا الأمر يمركز الذات في عملية الفهم و يجعلها متعالية ، و هو ما عيب على فلسفة هوسرل.

– قصدية الوعي : فكل وعي هو وعي بشيء ما ، و قد حاول هوسرل من خلال هذه الفكرة أن يلغي ثنائية الذات و الموضوع التي كرستها الفلسفات المثالية ، فالفعل القصدي يتوفر على جانبين ، الجانب الذاتي و الجانب الموضوعي ، فالجانب الذاتي يتمثل في الفعل المتجه نحو الموضوع و الجانب الموضوعي هو الموضوع المشار إليه من خلال الوعي و هما أمران لا يمكن من الناحية العملية الفصل بينهما ،، فإذا لم تكن هناك مادة يحتويها الوعي لما أمكن التعرف على وعي ، ولو لم يكن هنالك وعي لما أمكن الحديث عن مادة .

– الشعور كجامع للمادة والعقل :عندما يتحدث هوسرل عن الوعي فانه لا يعني الإدراك الحسي أو الإدراك العقلي ، وإنما يعني الشعور وهو المصطلح الذي رآه يجمع بين العقل والمادة.

–ظاهر الشئ هو ماهيته:يرى هوسرل وجوب التعامل مع موضوعات العالم بوصفها ظواهر كما يرفض الفصل بين الظاهر والماهية فاي جانب يظهر فيه الشئ يحمل معه ماهيته فظاهر الشئ هو نفسه ماهيته.

– التجربة الشعورية:أن الشئ لا يمكن أن ندركه على أنه موجود إلا بعد أن يدخل حيز وعينا كتجربة حية في الشعور.

– الإبوخية époché(عبارة إغريقية) أو تعليق الأحكام :و هو ما يعني وضع الأحكام السابقة حول الظواهر و الأشياء بين قوسين لكي لا تمارس التوجيه المسبق على الوعي ." إن تعليق الوجود يعني أن الإيبوخيه يقصد تحقيق الإمكان أي تحقيق الماهية في الموضوعات و العلاقات التي بينها بغير تسليم سابق "(4).

لقد مارست الظاهراتية الهوسرلية تأثيرها على النص و النقد الأدبيين ، حيث النص الأدبي بنظر الفينومينولوجية هو تمثيل للعالم و الوجود كما تجلى في وعي المؤلف و من هنا جاءت فكرة قصد المؤلف " إننا حينما نتكلم نمارس باستمرار قصدا داخليا يظهر في الكلمات و ينشطها ، و نتيجة هذا التنشيط أن الخطاب كله يجسد القصد في دواخله "(5) و في مقابل هذا كان هوسرل ينظر إلى عملية فهم النص الأدبي على أنها " السيرورة التي بواسطتها نعرف البواطن الداخلية انطلاقا من العلامات الخارجية الملموسة " (6) و نتمكن من إدراك العلاقات الفينومينولوجية التي تربط بين المؤلف كذات و العالم كموضوع من دون الرجوع إلى تاريخ المؤلف أو حياته الخاصة . إن فهم النص هو فهم الطريقة التي " يختبر" بها الكاتب المكان و الزمان و الأشياء.

- مارتن هايدغر و الظاهراتية :

لقد كرس هوسيرل مركزية الذات الإنسانية حينما ألغى كل وجود خارج الوعي الذاتي به ، فالعالم برأيه"ظاهرة" أمام ذات متعالية " ترنستندالية" ،و على خلاف ذلك حاول مارتن هايدغر إقصاء " الذات الإنسانية عن موقع الهيمنة الخيالي هذا "(7) منتقدا الجداثة الغربية في هذه المسألة تحديدا ، مسألة تأليه الإنسان و اعتباره مركز الوجود، مؤكدا أن الوجود " هو السجين المنسي تماما و انطلاقا من ذلك سعى إلى إيجاد بديل آخر لفهم طبيعة العلاقة بين الوعي و الوجود، متجاوزا إلى حد كبير ثنائية الذات و

الموضوع ،رافضا مقولة الأنا المطلق و كل التشكلات النهائية للحقيقة، و مركزا اهتمامه على تأويل كينونة الكائن. فالإنسان ليس كينونة مطلقة بل هو متحدد دوما و متعين في "الهنا" و "الآن" ، إنه الكينونة –هنا Da–sein و الكينونة مع الآخرين في العالم Mit–sein . إن الذات الإنسانية برأي هايدغر في حالة "قذف" متواصل إلى الأمام و في حالة مراجعة و إعادة بناء مستمرة ،وهي تحقق في كل مرة إمكانية جديدة من إمكانيات الكينونة أو الوجود في العالم ، إن وجودها " لا يشابه وجود الشيء أو الكتلة المادية كالحجر مثلا ، بل إنه وجود حركي لا يكاد يتضح في مظهر سلوكي حتى ينقلب إلى مظهر آخر ، فهو القدرة على الوجود و ليس الوجود المتحقق النهائي" كما يقول مطاع صفدي في كتابه مارتن هايدغر و الكينونة (8) و الأمر نفسه ينطبق على فهم العالم ، فالوجود ليس أيضا موضوعا منتهيا مستقرا بل هو سيرورة تاريخية ، و بعبارة أخرى يمكن القول إن الذات والوجود هما إمكانية وجود لم تتحقق بعد . و العلاقة بينهما هي علاقة حوار دائم لكن مبدأ هذا الحوار الأساسي هوالإصغاء و ليس الكلام فالوجود في الواقع يكشف نفسه باستمرار للإنسان الذي يتوجب عليه حسن الإصغاء كشرط جوهري للفهم ، و لعل تأثر هايدغر بهوسرل واضح في هذا السياق حيث الإستراتيجية المتبناة هي " ترك الأشياء لتتجلى أو تظهر كما هي دون فرض مقولاتنا عليها . فلسنا نحن الذين نشير إلى الأشياء أو ندركها ، بل الأشياء نفسها تكشف لنا عن نفسها" (9) ، إن للوجود في تفكير هايدغر هيبة كبيرة و إشعاعا خاصا ينتهي به إلى نكران الذات و إلغائها أمام تلك الهيبة و ذلك الإشعاع. و الوجود لا يكشف برأي هايدغر عن نفسه بالتجلي فقط بل بالتخفي أيضا إنه يتوجه إلى الإنسان ، و يلامسه ، و لكنه أيضا يتمنع و يختفي و يتكشف، و جدير بالملاحظة أن هذه المصطلحات كلها ستشيع في النقد المعاصر و يصير النص هو ذاك الوجود المنكشف ، المحتجب ، الذي يقول شيئا و يخفي أشياء محتفظا بالسر و تغدو القراءة النقدية هي محاولة الإصغاء إلى السر دون هتكه ، إذ الطبيعة بطبعها يلفها الضباب مما يلغي إمكانية الحقيقة الكلية و النهائية . من هنا كان النص الأدبي و الأشكال الفنية عند هايدغر هي " أسمى"

الأشكال لقول بعض حقيقة الوجود و "لصيانة" السر، بخلاف العلوم الأخرى التي لا ترقى إلى هذه المهمة . و يتوقف هايدغر عند الشعر و يعتبره نموذجا للفلسفة ، فهو الفن الذي يخفي حينما يحاول أن يكشف ، و لعل احتفاء هايدغر بالشعر جعل البعض يرى في فلسفته " تفكيرا شعريا حينا و شعرا عقليا حينا آخر " (10)